﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧﴾ [آل عمران: 196 - 197]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

المناسبة بين آجل الجزاء الأخرويّ الدّائم، وبين عاجل متاع الكفّار الزّائل

لمَّا وعد اللّٰه تعالى المؤمنين بالثَّواب الجزيل، وكان هذا الوعدُ آجلًا، وكان نظرُهم إلى ما عليه الكفَّار من سعةٍ وتنعُّم، مؤثِّرًا في بعض النُّفوس، أثرًا يقدحُ في الإيمان بالغيب؛ لمَا هم فيه مِنَ الفقر والشّدَّة، ذَكَرَ سُبحانه في هذه الآية ما يُسلِّيهم ويُصبِّرهم على ذلك، مُبيِّنًا أنَّ أموال الكُفَّار وما هم فيه مِنَ التَّنعُّم؛ إنَّما هي صورٌ لا حقائقَ لها، ولا ينبغي لأهل الإيمان أن يَعبَؤوا بذلك؛ لأنَّ عاقبتَه في غاية السُّوء[1]، فيجب أن لا تغترّ - أيّها الرّسول - بمتع أهل الكفر باللّٰه، وماهم عليه من بسطة في العيش، وتقلّب في ألوان الرّزق، وأصناف النّعم، ورواج تجاراتهم، وتراكم الأرباح والأموال لديهم، فسوف يزول هذا كلُّه عنهم، ويصبحون مرتهنين بأعمالهم السّيئة، وكفرهم الموبق[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَغُرَّنَّكَ﴾: من الغرور، وهو بالضّمّ ما (اغترّ) به من متاع الدّنيا[3]، والغين والرَّاء تدلُّ على أَثَرٍ ظاهرٍ في الشَّيءِ[4]، وأرجعها ابنُ فارسٍ إلى معانٍ، منها: النُّقصانُ، ومنه قِيلَ للنَّوم القليلِ: غِرارٌ، ومنه: بيع الغرَرِ؛ وهو الخطَرُ الّذي لا يُدرَى أيكونُ أم لا، كبيع الطَّيرِ في الهواءِ؛ وذلك لِنُقصان البيع وعدم تمامِهِ[5]، والأوَّلُ أعمُّ،

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/471، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 5/163 - 164.
(2) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسر، ص: 76.
(3) الرّازيّ: مختار الصّحاح: (غرر).
(4) الرّاغب، المفردات: (غرر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غر).

والنُّقصانُ مندرِجٌ فيه؛ لأنَّه أثرٌ ظاهر في الشَّيءِ. وتقول العربُ: غَرَرتُ فلانًا؛ أَصَبتُ غِرَّتَهُ، ونِلتُ منه ما أُريدُه، والغِرَّةُ: غَفلة في اليقظةِ[1]، والغَرُّ: الإطماعُ في أمر محبوبٍ على نيَّةِ عدم وقوعِه، أو هو إظهارُ أمرٍ مضرٍّ في صورة النَّافع[2]، والشَّيطانُ: غَرورٌ؛ لأنَّه يَحمِل على محابِّ النَّفسِ، ووراءَ ذلك ما يَسوءُ[3].

2) ﴿تَقَلُّبُ﴾: من (قلب)، قلبت الشّيء فانقلب، أي انكبّ، والمنقلَب يكون مكانًا ويكون مصدرًا، مثل المنصرَف[4]، والقاف واللَّام والباء تدلُّ على معنيين كُلِّيَّين؛ خالصُ شيءٍ وشريفُهُ، وردُّ شيءٍ مِن جهةٍ إلى جهةٍ[5]، يُقال: قَلَبَ الشّيءَ وقَلَّبه؛ إذا حَوَّله ظَهراً لبَطنٍ[6]، وقلَّب الأُمُورَ: بحثَها ونظر في عواقبها، وتَقَلَّبَ في الأُمور وفي البلاد: تصرَّف فيها كيف شاءَ[7]، والتقلُّبُ في قول الله تعالى: ﴿تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هو التَّصرُّف على حسب المَشيئَة في الحُروب والتِّجارات والغَرسِ، ونحو ذلك[8].

3) ﴿مَتَٰعٌ﴾: الميم والتَّاء والعَين تدُورُ تصريفاتُهَا على منفعةٍ وامتدادِ مُدَّةٍ في خيرٍ وقوَّةٍ وكمالِ حالٍ[9]، ومنه قوله تعالى: ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾ [هود: 3] أي: يَبسُط عليكم مِنَ الدُّنيا، ويرزقكم مِن زينتِها، ويَنسَأُ لكم في آجالكم إلى وقت وفاتِكم ولا يَستأصِلكم بعذابٍ[10]. ومنه: المَتاع؛ وهو في الأَصل: كلّ شَيء يُنتفَع به، ويُتبلَّغ به، ويُتزوَّدُ[11]، والمتاع: ما يستمتع به الإنسان في حوائجه من أمتعة البيت ونحوه من كلّ شيء، والدّنيا متاع الغرور، وكلّ شيء تمتّعت به فهو متاع[12]، ويُقال: إنّما العيشُ متاعُ

(1) الرّاغب، المفردات: (غرر).
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/205.
(3) الهرويّ، الغريبين: (غرر).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (قلب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قلب).
(6) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (قلب).
(7) ابن سيده، المحكم: (قلب).
(8) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 104، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/206.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (متع)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (متع).
(10) ابن جرير، جامع البيان: 15/229، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (متع).
(11) الأزهري، تهذيب اللغة: (متع).
(12) الخليل، العين: (متع).

أيَّام ثُمَّ يَزُول، أي: بقاءُ أيَّام[1]، وقولُهُ سبحانه: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ أي: شيءٌ ينتَفِعون به سنينَ قليلةً وينقضي[2].

4) ﴿مَأۡوَىٰهُمۡ﴾: أوى إلى منزله يأوي، - من باب ضرب - أويًا: أقام، والمأوى بفتح الواو لكلّ حيوان: سَكَنُهُ[3]، والهمزة والواو والياء تدور تصريفاتُها على معنيين: التَّجمُّع، والإشفاقُ[4]، ومِنَ الأوَّل: التَّأوِّي؛ وهو التَّجمُّع، وقولُ العربِ: تأوَّتِ الطَّيرُ؛ إذا انضمَّ بعضُها إلى بعضٍ[5]. المأْوى: المكانُ الذي يُنصرَفُ إليه ويُقامُ فيه[6]، والمأْوى في قول الله تعالى: ﴿مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ المصير الّذي يَأْوُون إليه يومَ القيامة[7].

5) ﴿ٱلۡمِهَادُ﴾: من (مهد)، ومهّدت الأمر تمهيدا، وطّأته وسهّلته[8]، والميم والهاء والدَّال تدلّ اشتقاقاتها على توطئةٍ وتسهيلٍ للشَّيءِ، ومنه: المَهدُ[9]؛ وهو ما يُهيَّأُ للصَّبيِّ مِنَ الفراش[10]، ويُقال: مَهَّدتُ لنَفسي، أَي: جَعَلتُ مَكانًا وطيئًا سهلًا[11]، والمِهَادُ: الفراش[12]. والمِهَادُ في قول الله تعالى: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ الفراشُ، والمعنى: بِئسَ الفِراشُ والمَضجِعُ جَهَنَّمُ[13].

ما عند الله في جنّاته للأبرار، خيرٌ من متاع الكفرة في دنيا البوار

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لا يَخدعنَّكَ يا أيُّها الرَّسول الكريمُ، تصرُّفُ الكفَّار في التِّجارة وإصابتُهم الأَموالَ وما هم فيه من سعة العيش؛ فيؤدِّي ذلك بك

(1) الخليل، العين: (متع).
(2) الجزائريّ، أيسر التَّفاسير: 1/429.
(3) الفيّومي، المصباح المنير: (عوي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أوي).
(5) الخليل، العين: (أوى).
(6) الحُميديّ، تفسير غريب ما في الصَّحيحين، ص: 266.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 7/494.
(8) الفيّومي، المصباح المنير: (مهد).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مهد).
(10) الرّاغب، المفردات: (مهد).
(11) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 80، والأزهري، تهذيب اللغة: (مهد).
(12) ابن سيده، المحكم: (مهد).
(13) ابن جرير، جامع البيان: 7/494.

إلى الشُّعور بالهمِّ والغمِّ من حالِهم؛ فإنَّ ذلك متاعٌ حقيرٌ، يَزولُ عنهم قريبًا، ويكون مآلهم إلى نار جهنَّم[1]، "ولا شكّ أنّ ما عند الله من الكرامة، أفضل على التّحقيق، ممّا يتقلّب فيه الّذين كفروا من المتاع القليل"[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الخطاب في ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾:

عصمةُ النَّبيِّ ﷺ مِنَ الاغترار بتَقَلُّب الكفَّار في المعايش

المخاطَبُ بالنَّهي في قول الله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾ يحتَمِلُ وجهين:

أحدهما: أنَّه النَّبيُّ ﷺ.

والآخرُ: أنَّه كُلُّ من يتَأَتَّى خطابُه.

أمَّا الأوَّلُ ففيه مَسلكان:

الأوَّلُ: أنَّ الخطابَ للنَّبيِّ ﷺ، والمُرادُ غيرُه[3]؛ لِمَا عُلِمَ مِن أنَّ النَّبيّ ﷺ لا يُمكنُه الاغترارُ بتنعُّم الكفَّار وتقلُّبِهم في المعايش؛ لأنَّ ذلك الاغترارَ مُنافٍ للعِصمَة.

وفي هذا نظرٌ؛ لأنَّ العصمةَ لا تُزيل النَّهي؛ إذ لو زال النَّهيُ لما كانت ثَمَّ عِصمةٌ؛ لأنَّ العصمةَ الحفظُ مِن مخالفة الأمر والنَّهي، وإذا زال النَّهيُ لم تكن ثَمَّ مخالفةٌ، فلا تكون عِصمةٌ[4].

والآخر: أنَّ الخطاب للنَّبيِّ ﷺ ولأمّتِه، ولكن وقعَ بأسلوب التَّغليب؛ تطييبًا لقلوب المُخاطَبين[5].

وخطاب الأُمَّةِ بمثل هذا النَّهي يُرادُ به حقيقةُ الإلزام بالتَّرك أو الدَّوامُ عليه لمن كان مُمتَثِلًا النَّهي.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 7/493 - 494، وابن أبي زَمَنِين، تفسير القرآن: 1/342، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 162، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 76.

(2) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير، ص: 260.

(3) مكيٌّ القَيسّي، الهداية إلى بلوغ النِّهاية: 2/1206، الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/471.

(4) البروسوي، روح البيان: 2/153.

(5) الآلوسّي، روح المعاني: 2/381.

وأمَّا خطاب النَّبيِّ ﷺ فالمرادُ به: الإلهابُ والتَّهييجُ؛ والمُرادُ بهما: كلُّ كلامٍ دالٍّ على الحثِّ على الفعل لِمَن لا يُتصوَّر منه تركُهُ، وعلى ترك الفعل لِمَن لا يُتصوَّر منه فعلهُ، ولكن يَكونُ صُدورُ الأمر والنَّهي على جهة الإلهاب والتَّهييج له على الفعل والتَّرك فحسب[1].

وأمَّا الوجهُ الآخر، وهو أن يكون المُرادُ به كلَّ مَن يتأتَّى خطابُهُ؛ فالمعنى: لا يغرنَّك أيُّها السَّامعُ[2]، وهو خارجٌ عَنِ الأصل من جهة أنَّ الأصلَ في الخطاب أن يكون لمعيَّنٍ، إلَّا أنَّ العدولَ عن إرادة المعيَّن بالخطاب قصدًا للعموم كثيرٌ في القرآن الكريم، وفي كلام العرب[3]، وهذا الوجهُ أبلَغُ؛ مِن حيث إنَّ هذا النَّهي يكون لكُلِّ مُتَلَقٍّ للخطاب كأنَّه وُجِّهَ له على سبيل الانفراد والخصوص، وهذا أدخَلُ في إبراز العناية بامتثاله.

بلاغةُ المجاز العقليِّ في ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ﴾:

مِـــن أقـــوى طُـرُق المَنع مِنَ الأشـيـاء: مَنعُ أسبابها المُنتِجَة لها

إسنادُ فعلِ الغُرور إلى التَّقَلُّب في قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ التَّقَلُّبَ سببٌ فيه، فالنَّهيُ في المعنى موجَّهٌ للمُخاطَب، وجعلُهُ للتَّقلُّب هو مِن باب تنزيل السَّبب - وهو التَّقلُّب - منزلةَ المُسبَّب - وهو اغترارُ المُخاطَب - ؛ لقصد المبالغة[4]، ووجه المبالغة: منعُ السَّبَب بإيراد النَّهي عليه؛ ليَمتَنِعَ المُسبَّبُ ضرورةً بالطَّريق البُرهانيّ[5]، والمعنى: لا ينبغي أن يَغُرَّكَ[6].

في المـوصـلـيّـة حـثٌّ عـلى عـدم الاغـــترار بـما يَصدُرُ مِنَ الكفَّار

نُكتة التَّعبير بالاسم الموصول:

إضافةُ التَّقلُّبِ إلى الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ من قول الله

(1) العلويُّ، الطِّراز: 3/93.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/471.
(3) السَّكَّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 180.
(4) البروسوي، روح البيان: 2/153.
(5) الآلوسّي، روح المعاني: 2/381.
(6) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/206.

تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تنفيرٌ مِن تقلُّبِهم قبل ذكر عاقبتِهِ ومآلِهِ، فالتَّقلُّبُ في البلاد سببٌ للاغترار، ولكنَّ تقلُّبَ الموصوفينَ بالكُفر لا ينبغي الاغترارُ به، كيف وقَدِ انضمَّ إلى ذلك سوءُ عاقبة أَمرهم.

بلاغة الفَصْل في قوله ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾:

فُصِلَ قولُ الله تعالى: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ عمَّا قبلُ؛ لوقوعِهِ استئنافًا بيانيًّا[1]؛ وذلك أنَّ قوله سبحانه: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ يُورثُ في النَّفس سؤالًا؛ وما لنا لا نغترُّ بتقلُّبِهم وهو سببٌ في الاغترار؟ وكيف تَرَكَهُم اللهُ تعالى على تلك الحال؟ فجاء الجواب: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾؛ تَنبيهًا إلى أنَّه لا ينبغي قَصرُ النَّظَر على الأحوال الظَّاهرة، بل يجبُ التأمُّلُ في مآلاتها.

في الفصل تنبيهٌ على وجوبِ التَّأمُّل في مآلات الأُمور

دلالةُ تنكيرِ ﴿مَتَٰعٌ﴾:

تنكيرُ ﴿مَتَٰعٌ﴾ مِن قول الله تعالى: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ﴾ يُرادُ به التَّحقيرُ؛ فهو متاع لا يَعبأُ به ذو همَّةٍ عليَّةٍ[2]، وازدادَ حقارةً بوجهين:

أحدهما: إفرادُهُ، وهو دالٌّ على القلَّة.

والآخر: وصفُه بالقلَّة؛ فيكون تمتُّعُهم حقيرًا في قدرِه، وقليلًا في وصفه.

ما يتمتَّعُ به الكفَّارُ، مهما عَظُمَ في الظَّاهر، فإنّهُ قليلٌ حقيرٌ

دلالةُ حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾:

﴿ثُمَّ﴾ من قول الله تعالى: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ﴾ حرفُ عطفٍ دالٌّ على التَّرتيب معَ التَّراخي؛ وفي التَّعبير به نُكتَتان[3]:

الأولى: إشارةٌ إلى أنَّ تمتُّعَهم بزخارف الحياة الدُّنيا، وإن

تَمتُّعُ الكفَّار بزخارف الدُّنيا، وإن طال، فإنَّهُ زائلٌ، سيِّئَةٌ عاقبتُهُ

(1) ابنُ عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 4/206.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/164.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/164، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1558.

فُرِضَ أنَّه قد طالَ في نظر المؤمنينَ؛ فإنَّهُ تمتُّعٌ لا قيمةَ له؛ لزواله وسوء ما بعدَهُ.

والأخرى: الإيماءُ إلى هول تلكَ العاقبَةِ وتناهِي عظَمَتِها؛ بالدِّلالة على التَّفاوت ما بين حالِهم في الدُّنيا، وما يكونون عليه في الآخرة.

توجيه المتشابه اللَّفظيّ بين ﴿ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ و﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾:

جاء التَّعبير في هذا المَوضِع مِن (آل عمران) بـ ﴿ثُمَّ﴾ في قول الله سبحانه: ﴿ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾، وورد هذا النَّظمُ بالواو أيضًا في قول الله تعالى: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ في أربعة مَواضِع:

دقَّـــةُ النَّـظـم الـــقـــرآنيِّ في اخـتـيـار حـروف المـــعـــانـي بـمـا يُناسبُ السِّياق

أوَّلُها: قولُ الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [التّوبة: 73].

ثانيها: قولُ الله سبحانه: ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [التّوبة: 95].

ثالثُها: قولُ الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [الرّعد: 18].

رابعُها: قولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [التّحريم: 9].

وجاءت بـ ﴿ثُمَّ﴾؛ لأنَّ هذه الآية سُبقَت بقول الله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾، وتصرُّفُهم في التِّجارة وإصابتُهم الأَموالَ قد يطولُ زَمَنُهُ، ولذا ذُكر حرفُ العطف ﴿ثُمَّ﴾ الدَّالّ على التَّراخي.

أمَّا الآياتُ الأربعُ الأخرى فوردَ العطفُ فيها بالواو؛ لعدم تضمُّنِهَا ما يقتضي التَّراخي، فكان الأنسبُ العطفَ بالواو المفيدة الاشتراكَ

في الحكم، كالّذي ورد في سورة الرَّعد: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [الرّعد: 18]؛ فإنَّ سوءَ الحساب من أحوال الآخرة، فعُطِفَ عليه ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ بالواو؛ لأنَّه من أحوال الآخرة كذلك؛ لإفادة وقوع الحُكمَين عليهم[1].

بلاغةُ الاستعارة التَّهكُّميَّة في قوله ﴿ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾:

التَّهكُّمُ مِن أَشدِّ أَنـواعِ الـعـذاب النَّفسيِّ

أصلُ المأوى: المكانُ الّذي يُنصَرَفُ إليه ويُقامُ فيه[2]، وإنَّما يُؤوَى إلى مكانٍ فيه استقرارٌ واطمئنانٌ، فمجيءُ التَّعبير القرآنيِّ عن جهنَّم بالمأوى في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ من باب الاستعارة التَّهكُّميَّة، ويُؤيِّدُه قولُه عَن جهنَّم بعدُ: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾، وأصلُ المِهاد: المكانُ المُمَهَّدُ، والفراش اللَّيِّنُ الموطَّأُ، فذلك يقوِّي دلالة التَّهكُّم[3]، وهذا أشدُّ وقعًا على النُّفوس؛ لما فيها مِنَ الإنزال لِقَدر المُخاطَب، والحطِّ منه[4].

توجيه المتشابه اللَّفظيِّ بين ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ و﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾:

دقَّـــةُ اختـيـار اللَّفظة المُلائمة لسياقها

قال الله تعالى: ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾، وجاء في سورة النّحل: ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [النّحل: 117]، ووجه المغايرة بينَهما: أنَّ آية آل عمران سُبقت بقول الله سبحانه: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾، فلمَّا كان لهؤلاء قُوَّةٌ وسَعَةٌ تُمَكِّنُهم مِنَ التَّقلُّب في البلاد؛ كان لا بُدَّ لهم مِن مكانٍ يأوونَ إليه؛ ذكَرَ الله تعالى مأواهم، فقال ﷻ: ﴿ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾.

أمَّا آية النَّحل فسُبِقَت بقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ

(1) داود، معجم الفروق الدّلاليَّة، ص: 592.
(2) الحُمَيديّ، تفسير غريب ما في الصَّحيحين، ص: 266.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1558.
(4) العلويّ، الطِّراز: 1/127.

﴿أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النّحل: 116]، فلمَّا بلغَ هؤلاءِ المُنتهَى في الكذب، وذلك بكذبهم على الله تعالى كَذِبًا يُؤلِمُ أولياءَهُ، وهم يَجدون في كذبهم ذلك لذَّةً؛ كان الأنسبُ تخصيصَهم بما يُبطِلُ تلك اللَّذّة، ويُزيل كُلَّ عُذوبةٍ، ويُورِثُهم ضدَّ ذلك من الألم فقال تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(غَرَّ) و(خَدَعَ):

يشتركان في مُطلَقِ وقوعِ الضَّرر، وهذا الّذي سبَّبَ التَّقارُبَ بين اللَّفظتين[2]، ويفترِقان مِن وجهين[3]: أوَّلُهُما: أنَّ أصلَ الغررِ الأثرُ الظَّاهرُ في الشَّيء، ومنه النُّقصانُ، وأمَّا الخداعُ فأصلهُ: الخَفَاءُ، ثانيهما: أنَّ الخِداع فعل يَظهرُ فيه قُدرَةُ الخادِعِ على إخفاء الشَّيء وإظهَارِ غَيرِهِ، وهو دالٌّ على الفِطنَة، أمَّا الغرورُ فهو فعلٌ يُنبئُ عن غفلة المغرور، ونقص فِطنته. ومِن هُنا ورد الخِداعُ في القرآن الكريم وَصفًا لأفعال الكافرين والمُنافقين، ومُجازاةَ الله تعالى لهم على خِداعِهم، وتَحذيرًا للنَّبيِّ ﷺ والمؤمنين، من الوقوع في حبائلِهم، فهم يظنُّون أنَّهم أهل فطنةٍ وذكاءٍ، بخلاف الغرورِ؛ فقد ورد في سياق التَّحذير مِنَ الغفلة، والانسياق وراءَ زينَةِ الحياة الدُّنيا، ومِن الوقوع في حبائل الشَّيطان، ودرَك الشَّهوات.

المأْوى والمَثْوَى:

ذهب بعضُ أهل العلم إلى أنَّ المأوَى والمَثوَى بمعنًى واحد[4]، وفرَّق بينهما جماعةٌ، وحاصلُ الفرق بينهما مِن وَجهَين: أحدهما: أنَّ المأوى أعمُّ من المثوى؛ لأنَّ المثوَى تتضمَّنُ معنى الإقامةِ، بخلاف المأْوَى[5]؛ فقد يدلُّ على معنى الإقامة، وقد لا يدلُّ عليها؛ ولذا قد يأوي الإنسانُ إلى مكانٍ عارضٍ، ولذا جاء في الحديث قول النَّبيِّ ﷺ: «انطَلَقَ ثَلاَثَةُ رَهطٍ مِمَّن كَانَ قَبلَكُم حَتَّى أَوَوا المَبِيتَ إلى غَارٍ»[6] – في القصَّة المشهورة – ، فعبَّر عن

(1) سعد عبد العظيم محمّد، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 351.
(2) الجرجانيّ، درج الدّرر: 2/555.
(3) داود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 234 - 236.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 14/77، والواحديّ، التّفسير البسيط: 20/232، والدّقيقيّ، اتّفاق المباني وافتراق المعاني، ص: 255.
(5) الآلوسّي، روح المعاني: 2/301، والهرَريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 5/222.
(6) البخاريّ، الحديث رقم: (2272)، ومسلم، الحديث رقم: (2743).

مَبيتِهم العارِضِ في غارٍ بالإيواءِ، ثانيهما: أنَّ الإقامةَ إن دلَّ عليه لفظ (المأوى) يُفارق الإقامةَ الّتي يدلُّ عليه لفظُ (المثوى)؛ لأنَّ الإقامةَ في المثوَى إقامةٌ مع دوامٍ، بخلافها في المأوى[1]، فالمأوى قد يُقيم فيه المرءُ إقامةً طويلةً، ولكنَّ المثوَى يقتضي الإقامة الدَّائمةَ[2].

وقد جُمِعَ بين المَأْوَى والمَثوَى في آيةٍ واحدةٍ، وهي قولُ اللّه تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: 151]، وهو يؤيِّدُ أنَّ في المثوى أمرًا زائدًا على المأوَى، ففي ذِكر المَثوَى بعد المأوى إشارةٌ إلى خُلودِهِم، ولذا قُدِّم المأوى؛ بالنَّظر إلى التَّرتيب الوجوديِّ؛ فإنَّ الكافرَ يأوي ثُمَّ يَثوِي[3].

(1) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 167 - 168.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1450.
(3) القنَّوجيّ، فتح البيان: 2/352.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس، سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 6 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-58-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 6 : سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-58-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2475776 بتاريخ 2023/03/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»